نظرات في لغة نجيب الكيلاني القصصية

Glances in the language at najib kilani stories

د. نصر الدين دَلاَوي[1]
كلّية الآداب واللّغات – جامعة معسكر

تاريخ الإرسال: 2019/02/28 تاريخ القبول: 2019/09/23 تاريخ النشر: 2020/01/16

الملخص:
الأدب فنّ لغويّ إذْ اللّغة مادّته واللّغة وسيلته. وإنّ أوّل امتحان يجتازه الأديب بل أوّل تحدٍّ يواجهه هو امتلاكه للغته وقدرته على التّحكم فيها وتَطويعها لخدمة أغراض فنّه وتحقيق مجموع المعاني والأفكار التي يتوخّاها. وفي هذا البحث محاولة للوقوف عند طبيعة اللّغة القصصيّة عند نجيب الكيلاني (1931-1995) واكتناهها وبيان مصادر القوّة فيها ومظاهر التّميز والجمال.
الكلمات المفتاحيّة: الكيلاني، اللّغة، التّصوير، سارتر، الشّعور

Summary
Literature is a linguistic art in which language is its material and its language.The first test passed by the writer, but the first challenge is the possession of his language and ability to control and adapt to serve the purposes of his art and achieve the total meanings and ideas envisaged.In this research, an attempt is made to determine the nature of the narrative language of Najib al-Kilani (1995-1931) and its sources of power and manifestations of beauty and excellence.
The keywords: Kilani, Language, Representation, Sartre, Feeling

مقدّمة:

نجيب الكيلاني كاتب وقاصّ ولكنّ اختصاصه الأوّل هو الطّب. وقد اتّجه إلى الكتابة الفنّية منذ سِنِي شبابه الأولى حين سكنه هاجسُ الكتابة وكان يُناديه وألحّ عليه إلحاحًا. كلّ أولئك قاده إلى ساحة الفنّ والأدب. وقد عانى تجربة الكتابة، في فنّ القصّة وفي غيرها، وإبداعه طويل ممتدّ وهو ليس بالقليل. له العديد من المؤلّفات في الفكر والأدب

إنّ القصّة جنس أدبيّ متميّز لأنّها، خلافًا للرّواية، تكون معنيّة، في المقام الأوّل، بتسجيل اللّحظات الخاصّة في الحياة وتسليط الأضواء عليها واكتناهها وبيان دوافعها الأولى وملابساتها المختلفة. ومن خلال هذه اللّحظات الخاصّة في الحياة يستطيع القاصّ، متوسّلاً بالأحداث والأبطال والإيحاءات والشّخصيّات، أن يُعطينا موقفًا من الكون والعالم أو أنْ يتقاسم معنا خلاصة سَعْي أو مضمون تجربة أو جَديد فَهم أو قَبسات من اللّذة والألم. وبناءً على ما تقدّم من إيضاح وبيان يمكن القول،

1- د. نصر الدين دلاوي:nasdene@gmail.com

باطمئنان، بأنّ القصّة هي الحياة لأنّها مَعنيّة بالوقوف عند اللّحظات الخاصّة في الحياة واكتناهها وتَملّيها وهي، دائمًا أو غالبًا، لحظات قويّة وفترات حاسمة. وإنّ هذه اللّحظات الخاصّة تتطلّب لغة خاصّة تُضاهيها في قوّة التّأثير وعمق الدّلالة والإيحاء

إنّ الأدب فنّ لغويّ أيْ أنّ اللّغة وسيلته وغايته وهي عمدة فيه وليست فضلة. ولا تتمّ لكاتب كتابتُه ولا يستوي لقاصّ بناء ولا يقوم له إنجاز بدون سيطرة على هذه اللّغة وتحكّم في ناصيتها أو بدون فَهم لها وإحاطة بمعانيها وخباياها. وهذه الأهمّية القُصوى التي تتمتّع اللّغة هي التي تجعلها محورًا أساسيًّا وأداة فعّالة في الكتابة الفنّية وفي الكتابة عمومًا.

واللّغة، في الفنّ القصصيّ، تتمتّع بهذه المزيّة، كذلك، وهي وسيلته وغايته في الوقت نفسه. وهي تَحظى، في هذا الفنّ، بوَضع خاصّ ولها، داخل هذا الفنّ، طبيعة[1] خاصّة اكتسبتها من وظيفتها المتميّزة وهي الوقوف عند اللّحظات الخاصّة في الحياة دون سواها من اللّحظات وتسجيلُها وإضاءتها وتعمّقها لتكون أساسًا لاستبطان[2] الشّخصيّات الإنسانيّة وأصلاً لفهم سلوكها ودوافعها. القصّة إذنْ، هي الحياة إذْ هي تقوم بتسجيل اللّحظات القويّة والحاسمة في هذه الحياة. وبناءً على هذا الأمر فإنّ اللّغة التي تصاحب هذا العمل وتتولّى هذه الوظيفة هي لغة نسيجُ وَحْدِها لها نُكهتها الخاصّة ولها طبيعتها الخاصّة ويكون الموقف منها مختلفًا والتّعامل معها مختلفًا وكذلك يكون الشّأن في كيفيّة توظيفها في القصّة وتوزيعها على الأحداث وتقسيمها على الشّخصيات. ومهمّة هذا المقال هو الوقوف عند لغة نجيب الكيلاني القصصيّة وبيان مصادر القوّة فيها ومجالي التّميز ومواطن الجمال.

1- اللّغة كائن حيّ

إنّ أوّل ما يقف القارئ عند نجيب الكيلاني حيويّة لغته القصصيّة إذْ يَشحنها شَحنًا فَيُحمّلها ما شاء من المعاني والدّلالات ويَصبّ عليها من معاناته أو من معاناة شخصيّاته التي تَفيض حبًّا للحياة

1- الطّبيعة: بوجه عام هي مجموع الكائنات في نظمها المختلفة من أرض وسماء وتسمَّى الكوسموس أو الكون وتقابل الإنسان. أمّا بوجه خاص فهي القوة السّارية في الجسم وبها يصل إلى كماله الطبيعيّ. وطبيعة الشّيء هي سرّ نموه وتغيره وحركاته المختلفة. و- انظر مجمع اللّغة العربية، المعجم الفلسفيّ، الهيئة العامّة لشؤون المطابع الأميرية. القاهرة، 1983ص 112وجميل صليبا، المعجم الفلسفيّ. دار الكتاب اللّبناني، بيروت،1978 ص 13 وعليّ بن محمد الشّريف، الجرجاني، التّعريفات، مكتبة لبنان، بيروت، طبعة جديدة،1985، ص 154

2 – الاستبطان: لغةً هو الدّخول في باطن الشيء واصطلاحًا هو التّأمل الباطنيّ الذي يقع على ما يحدث في عالم الشّعور. انظر المجمع اللّغوي، المعجم الفلسفيّ الهيئة العامّة لشؤون المطابع الأميرية. القاهرة،1983 ص 10وجميل صليبا، المعجم الفلسفيّ. دار الكتاب اللّبناني، بيروت،1978 64/1

وحركةً واشتعالاً. ثمّ إنه ليَضعها في نَظم معيَّن وفي سياق معلوم فترتدّ قويّة شاخصة تتبادل التّأثير والتّأثر مع مَن حولها وتتنازع الأخذ والعطاء مع محيطها وتتعاون مع مجموع الأحداث وتتابعها وأنواع الشّخصيّات وتفوزها ودلالات الزّمان والمكان وإضافات الألوان والأضواء مُضافًا إليها معانيها التي تُفرزها وإيحاءاتها التي تُنشئُها...كلّ أولئك يتساند ويتعاضد لصناعة أنواع من الحياة تفيض بها قصص نجيب الكيلاني.

وفي هذا المقام قد يَعِنّ هذا السّؤال: مِن أين تكتسب لغة نجيب الكيلاني القصصيّة حيويّتها ومزاياها؟

إنّ حيويّة اللّغة، في قصص نجيب الكيلاني، إنّما تتحقّق من مجموعة أوصاف تُحالفها. وأُولى أوصاف هذه اللّغة بساطتها وسهولتها وحُسن اصطفائها وتوظيفها. وليس المقصود بوصف البساطة أنّها لغة ضعيفة غير مُتَّسقة أو سُوقيّة مبتذلة عاجزة عن أداء معانيها ولكنّ المقصود أنها لغة تتجافى عن كلّ وَحشيّ[1] ولا وجود لمعاظلة[2] فيها أو تَفَيهق أو تَفصّح.

وتتمّةً للجواب السّابق يمكن الإضافة بأنّ عناية الكيلاني بلغته القصصيّة واهتمامه باللّفظة القويّة ذات المعنى العميق والإشعاع الواسع والإيحاء الجميل إنّما تعود إلى إعجابه بالقَصص القرآنيّ وتأثّره بصوره الفنّية وإضافاته الجماليّة[3].

2- الشّعور باللّغة: إنّ الشّعور باللّغة درجة عُليا زائدة على درجة امتلاكها والتّحكم فيها وتطويعها وهي إضافة نوعيّة لا يؤتياها إلاّ القلّة المحظوظون. وإنّ الذي يَلفت الانتباه عند نجيب الكيلاني أنه شاعر بلغته وهي تنتمي إليه انتماء العضو إلى كامل الجسد. ولبيان هذا الأمر يمكن، في هذا المقام، استحضار كلمة سارتر [4]الذي يقول في شأن اللّغة: «ومنزلتنا من اللّغة كمنزلتنا من جسدنا: نَشعر بها ذاتًا على حين نتجاوزها إلى ما وراءها من غايات أخرى على نحو ما نشعُر بأيْدينا وأقْدامنا (..). هناك كلمة يحييها المرء وكلمة أخرى يُصادفها. ولكن كلا الحالين رَهن بمشروع أقوم به قولاً بُغية التّأثير في الآخرين أو يقوم به الآخرون بُغية التّأثير فِيَّ. فالكلام لحظة خاصّة من لحظات العمل ولا معنى له في خارج ذلك النّطاق».

---

[1] – هو اللّفظ غير ظاهر المعنى ولا مأنوس الاستعمال. وانظر محمد علي التّهانوي، كشّاف اصطلاحات الفنون والعلوم. مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، ط:1،1996 ص 1776

[2] – عاظل بالكلام عقّده وصعّبه. وانظر المجمع اللّغوي بمصر، المعجم الوسيط، دار الفكر، بيروت، ط.2، بدون تاريخ ص 609

[3]– انظر جون بول، سارتر، ما الأدب؟ تر محمد غنيمي هلال، دار العودة، بيروت، ط.1، 1984، ص: 16.

نجيب الكيلاني، إذنْ، شاعر بلغته كما هو شاعر بجسده وجوارحه ولكنّه لا يَقف عند حدود هذا الشّعور الأوّلي باللّغة متشبّعًا بها ومتوهّمًا أنه مُجزئه أو كافِيه. إنّ الكيلاني لَيتجاوز هذا الشّعور فيَخطُو الخطوة النّوعية الأخرى حين يجعل الكلمات تَصدع بدلالاتها القويّة والألفاظ تَنضَحب معانيها الفائقة في وَسط المواقف وزَحمة الأحد إذ تَهيَّأ، حينئذٍ، لتحقيق التّأثير المناسب والإيحاء الممتدّ والإشعاع الكبير. وفي الأمثلة التّالية بيان لهذا الأمر وجلاء.

3- نماذج وأمثلة

«استبدّ القلق بعمّ عبده وحطّ على قلبه همّ ثقيل.. ماذا يفعل والأفواه الجائعة الصّغيرة لا تعرف الصّبر وجَيبه ليس فيه ملِّيم واحد والعلبة الصَّفيحية الصَّدِئة لم يَبقَ فيها غير قليل من التّبغ؟ كانت المشكلة بالنسبة لعمّ عبده، في ظاهرها، مشكلة القروش لكنّ الحقيقة أنّ عقله الباطن كان يَختزن، في نفس الوقت، (هكذا) مرارة ما بعدها مرارة بسبب ابنته الكبرى روحيّة. لقد طردها زوجها العامل بمصانع الزّجاج.. ويا لشراسة زوجها وجفاف طَبعه وشدّة استهتاره! وروحيّة لا تكفّ عن البكاء فهي تريد أنْ تعيش..أنْ ترضى بالهوان في ظلّ زوجها فهذا أفضل بكثير من أنْ تَحْيا بلا رجل..فأبوها بوّاب مسكين مرتّبه ثلاث جنيهات وبعض الصّدقات وقروش قليلة يُسقطها سكّان العمارة في يده كلّما أدّى لهم شيئًا من الخدمات (...) ومع ذلك فالرّجل يَعول أطفالاً أربعة وزوجة هذا عدا ابنه فتحي لا يكلّفه شيئًا بل هو مصدر من مصادر رزقه لأنه يبعث إلى أبيه بجُنيه كامل أوائل كلّ شهر ».[1]

في هذه الفقرة يقودنا نجيب الكيلاني إلى عالم مُظلم قاتم شديد الكآبة متعدِّد المعاناة والآلام هو عالم عمّ عبده. لنتابعْ هذا الوصف.

إنّ معاناة عمّ عبده ناشئة من وَضعه البائس: فهو بوّاب مسكين. مرتّبه ثلاث جنيهات وبضع صَدقات يفوز بها مقابل خَدمات يقدّمها لسكّان العمارة. وهو يذوق الإهانة والإذلال من زوجته ومن سكّان العمارة ومن الأطفال. ولكنّ معاناته ليست واحدة. لِنُتابعْ. عمّ عبده يَعول أربعة أطفال وزوجة وليس في جَيبه شيء وأطفاله الصّغار جياع. هل انْتَهت معاناته؟ أبدًا. فقد جَثم على قلبه همّ آخر ثقيل: فابنته الكبرى روحيّة طلّقها زوجها وهي لا تنفكّ عن البكاء صباحَ مساء. وهي عِبْء آخر يتحمّله أَبُوها ذو العَيلة والعِيال. وإذا تأمّلنا هذا النّص وفحصناه قليلاً فماذا نحن واجدون؟

1- انظر نجيب، الكيلاني، العالم الضيّق، مؤسّسة الرسالة، بيروت، ط 5 ،1993 ص 9 – 10

إنّ الكيلاني ينتقي كلماته انتقاءً حتّى تجيء معانيها متماثلة مع الأحوال النّفسية الخانقة ومناسبة للشّعور العامّ السّائد في هذا العالم الضّيق وتتولّى رسم مظاهر معاناة عمّ عبده ما ظهر منه وما بَطن: القلق والهمّ والمشكلة والمرارة. ثم الشَّراسة والجفاف والاستهتار والبكاء والهوان.

وهذه الألفاظ المُنتقاة لا تحقّق معانيها استقلالاً وإنّما تجيء مصحوبة بأفعال وأوصاف تَهبُها الحياة وتحقّق لها العناصر النّفسية التي يتطلّبها السّرد الفنّي: استبدّ القلق. همّ ثقيل. يختزن مرارة. لا تكفّ عن البكاء. ترضى بالهوان...

ويَمنح الكيلاني العبارات المزيّة نفسها حين يجعلها مشاركة في عمليّة هذا الإمداد وإقامة العناصر النّفسية اللاّزمة لتصوير هذا العالم الضّيق ورسم أبعاد هذه المعاناة: «حطّ على قلبه همّ ثقيل». والحطّ يكون من مكان عَلٍ وفيه إشارة إلى التّوجس والاهتياج. وليس فعل «نزل» أو «شعر» أو أيّ فعل آخر لأنّ فعل «حطّ» فيه إشارة أيضا، إلى أنّ هذا المحطوط ذو حجم ووَزن وهو عِبء ثقيل ينو به حاملُه.

وفعل «حطّ»، في هذه العبارة، مضعّف وليس سالمًا. وصيغة التّضعيف تلائم طبيعة هذه الأجواء النّفسيّة المعقَّدة. وعبارة «الأفواه الجائعة الصّغيرة» بدلاً من «الأفواه الصّغيرة الجائعة» للتّنبيه إلى وطأة الجوع وشدّته ووُجوب سَدّه. وهو همّ آخر وألم آخر يُضاف إلى مجموع الآلام.

ومن هذا اللون أيضا، قوله: «... وقروش قليلة يُسقطها سكّان العمارة...». «يُسقطها» وليس فعلاً آخر مثل «يُعطيها» أو «يمنحها». والسّقوط أو الإسقاط إنّما يكون مِن فَوق ومِن عَلٍ.

وإرادة القاصّ واضحة من وراء هذا الاستقصاء إذْ هو إمعان في تصوير انحطاط مرتبة عمّ عبده الحسِّية والمعنويّة وتباعد ما بينه وبين غيره من المكانة والمسافات. وكأنّ هؤلاء السّكان يَتجنّبون قُربه وملامسته لِرفْعتهم ودناءته.

وفي أتون هذه المعاناة وفي زحمة هذا الحرمان والعذاب يتشبَّث عمّ عبده وأسرتُه بالحياة محاولاً مغالبة الأوضاع الصّعبة التي تَخنقه أو التّكيف معها مؤمِّلاً أنْ يجيء الغدُ بما هو أفضل من أمسِ وأجمل ومتطلِّعًا إلى وصول الجنيه الذي يخفّف شيئًا قليلاً من المعاناة التي يَصلاها والحرمان. فابنته روحيّة «تريد أنْ تعيش». أثبت لها الكيلاني إرادة الحياة أيْ الإرادة والحياة. وكذلك هو الشّأن بالنّسبة إلى أبيها الذي يتطلّع إلى أنْ يصلمن ابنه، الجُنيه الكامل الذي يَقتات منه ويسدّ به جوع الأفواه الصّغيرة الجائعة.

لقد استطاع نجيب الكيلاني في فقرة قصيرة، متوسِّلاً بكلمات سهلة وبسيطة أنْ يصوّر لنا معاناة أُنا سعاد يئن ويجعل بيننا وبينهم نَسبًا وصِلة حين ربط شعورنا بشعورهم وجعلنا نُطلّ على حَجم معاناتهم وشديد آلامهم ونكتشف في الوقت نفسه في وسط الظّلمات التي تَلفّهم، إرادتهم المستميتة

على البقاء وإصرارهم الثّابت على المغالبة ومقاومتهم القويّة لليأس والاستسلام وحبّهم الكبير للحياة وتشبّثهم بها وتكيّفهم مع أوضاعها الصّعبة. وحينئذٍ يزداد تعاطفُنا مع هذه الشّخصيات الإنسانيّة العاديّة ويتضاعف إعجابنا بها ويتزايد احترامنا لسَعيها وتقديرنا لصِراعها. وبهذا الصّنيع يكون نجيب الكيلاني قد حقّق لفنّه بعض عناصر النّجاح والخلود لأنه استطاع أنْ ينشئ فنًّا إنسانيًّا تَهَشّ لنا نفوسُنا وتستجيب له عواطفنا وتَمتلئ به حواسّنا لأنه فنّ يخاطب فينا إنسانيَّتنا.

4- التّصوير بالكلمات

سؤال آخر يَقفنا في هذا المقام: كيف استطاع الكيلاني أنْ يحقّق لفنّه كلّ هذا النّجاح والتّوفيق؟ إنّه التّصوير. التّصوير بالألفاظ والرّسم بالكلمات. إنها اللّغة حين تُولد حيّةً وتَقتات من شعور إنسان حي فتجعل الكلمات والعبارات تنتفض حيّة قويّة تعيش بين الأحياء وتَتولَّى خَلق الحياة في كلّ ما تمَسّه أو توحي به أو تَدنو منه أو تلامسه. وليس من شكّ أنّ للأسلوب وطريقة العرض نصيبًا في تحقيق هذه المزيّة وبلوغ هذا الأمر غايته وتمامه لأنّ الكاتب كما يقول سارتر[1]، ليس «بكاتب لأنه اختار التّحدث عن بعض أشياء بل لأنه اختار التّحدث عنها بطريقة معيّنة».

ولا بدَّ، في هذا المقام، من تَكملة لهذا القول خلاصتها أنّ طريقة العرض والأسلوب إنّما تَصنعه المعاناة أو ما يُسمَّى بالمعامل الذّاتيّ وهي التي تَهَب العمل الفنّي أصالته وخصوصيّته وهي قيمة أساسيّة في العمل الفنّي النّاجح. وتتظاهر هذه المعاناة مع الموهبة الفنّية، وهي القيمة الأخرى، لمنح العمل الفنّي درجته ومستواه وتحقيق جاذبيّته وقوّة تأثيره.

وفي النّص التّالي من قصّة (الدّفء وليالي الشّتاء) يمكننا الوقوف عند عناية عند نجيب الكيلاني الفائقة بلغته وفنّه وتلمّس آثارها.

يصوّر لنا القاصّ شخصيّة رؤوف، وهو طبيب، يحبّ سوسن التي تحبّه وتُبادله هذا الحبّ وتتمنّاه زوجًا تُقاسمه حياتها. ولكنّ عَيب رؤوف الأكبر أنه شخصيّة يَسكنها الخوف والتّردّد وهما وصفان يَصدمان أنوثة المرأة التي تبحث دائما، عن رجل قويّ حازم تطمئنّ إليه ويوفّر لها درجات كبرى من الأمن والسّكينة والأمان. وفي هذا النّص يصوّر الكيلاني هشاشة هذه الشّخصية وضعفها وتردّدها في موقف، مع سوسن، يشرح لها سبب رفضه علاج حالة استعجاليّة خوفًا من المضاعفات النّاشئة أو خوفًا من فشله بسبب تردّده.

1- جون بول، سارتر، ما الأدب؟ ص 21

«تعلّمت الحرص منذ صغري.. لقد تربّيت في بيت محافظ (...) وأنا صغير تأخذني الدّادة إلى المدرسة ولا تترك يدي حتى أبلغ بابها... وإذا ما كبرت تحذّرني أمّي بعدم السّير في الشّارع والاعتصام دائمًا بالرّصيف...الرّصيف فيه السّلامة. وعلّمتني الشّك في النّاس...فيهم ذئاب كثيرون (...) وكثيرًا ما كانت رحمها الله، تحذّرني من الفتيات الخليعات. ولعلّ سرّ نجاحي في التّعليم وعدم وقوعي في الخطأ راجعان إلى نصائحها الغالية.. من النّادر أنْ أُخطئ.. ألست معي يا سوسن؟ »[1].

يلجأ نجيب الكيلاني، في هذا النّص، لتصوير هذه الشّخصية الهشّة المتردّدة إلى انتقاء الألفاظ التي المناسبة التي تدلّ معانيها عليها دلالة قويّة على هذه الحالةَ النّفسية. ويمكن وضع هذه الألفاظ في ترتيبها كما وردت في النّص السّابق لبيان كيف يلجأ نجيب الكيلاني إلى تصوير هذه الحالة النّفسيّة المعقَّدة بدلالات مختلفة: الحرص أيْ الحرص الشّديد الذي يتجاوز حدَّه المعقول فيصبح سلوكًا مُثبِّطًا ومرضًا ملازمًا. ثمّ أتْبعه بالدّادة والاعتصام والرّصيف والسّلامة والشّك والذّئاب.

وهذه الألفاظ جميعها يمكننا تلخيص معانيها وما تُفرزه من إيحاءات في عنوان واحد كبير وهو: الخَوف والتّردد أو مُقابلُه وهو طلبُ السّلامة وطلبُ الاحْتِماء. وليس خافيًا أنّ هذه الألفاظ وحدها، في سياقها المناسب، كفيلةٌ معانيها برسم ملامح هذه الشّخصية المهزوزة وإضاءة أعماقها. ولكنّ نجيب الكيلاني، كعادته، شديد العناية بفنّه لا يتعجّل بل يتأنَّى ويقف عند تلك اللّحظات الإنسانيّة الدّقيقة والجوانب النّفسيّة العميقة فيجمع لها ما وَسِعه من أدوات فنّية وتعبير حتَّى يكون تصويره لها تصويرًا ناجحًا. وتأسيسًا على هذا القول فإنّ نجيب الكيلاني لا يكتفي بإشعاع الكلمات وظلالها بل يُضيف إليها أفعالاً دالّة تَعضُدها وتَشحنها: «تحذّرني أمّي» «تحذّرني من الفتيات الخليعات» ثم يُلحق بها عبارة تقوّيها: «لقد تربّيت في بيت محافظ». محافظ: من فعل حَفِظ يحفظ حِفظًا. والحفظ يتساوق معناه مع ظلال الكلمات السّابقة: الاعتصام والدّادة والرّصيف والسّلامة...

ولا يقف نجيب الكيلاني عند هذا الحدّ في العناية بفنّه بل يلجأ إلى إنطاق هذه الشّخصية الخائفة المتردّدة بما يَفضح مَستُورها ويدلّ على مكنونها ويُجلي طبيعتها: «... وأنا صغير تأخذني الدّادة إلى المدرسة ولا تترك يَدي حتّى أَبْلغ بابَها».

وكلمة الدّادة، هنا، يمكن الوقوف عندها من جانبَين: جانب الاستعمال وجانب الدّلالة. فأمّا جانب الاستعمال فإنّ كلمة الدّادة كلمة تتردّد على ألسنة الأطفال ومعناها الجدّة. واستعمال

1- انظر نجيب، الكيلاني، عند الرّحيل، مؤسّسة الرسالة، بيروت، طبعة جديدة منقّحة، 1999 ص 110

نجيب الكيلاني لها لَدى هذه الشّخصية كأنّه إشارة منه إلى عدم نضجها وعدم بلوغها بتأخّر لغتها. وتوضيح هذا الأمر أنّ الإنسان، في الوضع الطّبيعيّ، ينتقل، في نموّه اللّغويّ، من اللّغة الطّفوليّة إلى اللّغة المتماسكة. وهذه اللّغة التي تُصاحبه في طفولته تختلف اختلافًا كبيرًا عن اللّغة التي يكتسبها، في رشده، حين يتباعد عن طفولته فيَنم وجسدُه وينضج ويَستوي لأنّ اللّغة تنمو مع صاحبها وتنضج بنُضجه واستوائه.

أمّا جانب الدّلالة فإنّ كلمة الدّادة الطّفوليّة توحي بمجموعة من المعاني كالتّدليل والحماية والعناية ثمّ يضاف إليه مشهد هذه الدّادة وهي مُمسكة بيد صغيرها الذي هو في حمايتها فلا يهدأ لها بال ولا تطمئنّ حتّى تبلّغه مدرسته أو تبلِّغه مَأمنه...

كلّ هذه المعاني والصّور، إذنْ، لم تنقطع من ذاكرة رؤوف ولم تَزل شاخصة في شعوره حيّةً في أعماقه تَحْكم مواقفه وسلوكه. ووظيفة هذه المعاني والصّور التّأكيد على هشاشة هذه الشّخصية وخوفها المُقيم وتردّدها وتهافتها وإمعانًا في الكشف عن طويّتها وخباياها.

ويخطو نجيب الكيلاني خطوة نوعيّة أخرى في تصوير هذه الشّخصية المهزوزة حين يتوجّه رؤوف بالسّؤال إلى سوسن في نهاية كلامه مُستميلاً أو مترجِّيًا: «...أَلست معي يا سوسن؟». ويجيء هذا المشهد مؤكِّدًا لمجموع ما سَبق من وصف وتصوير لهذه الشّخصية وهو اللّمسة الأخيرة في هذا التّصوير وتكتمل به حينئذ، صورة التّردد والخوف الذي يَسكن هذه الشّخصية ويتبدَّى حجم التّهافت والاضطراب الذي تعانيه لأنّ الواثق من نفسه الحازم في أمره القويّ في رأيه الذي يقصد بكلامه الإقناع والتّأثير لا يَسأل ولا يَشكّ ولا يَستميل أو يستعطف ولا يَفتح، ابتداءً، مجالاً للسّامع لأنْ يشكّ في أقواله أو يتردّد في قَبولها.

إنّ رؤوف الطّبيب شخصيّة فاقدة للجاذبيّة والتّوازن[1] لأنّها شخصيّة مصابة بالتّردد ومقيَّدة بالخوف الذي استحال، عندها، مرضًا ملازمًا يُعوِّق علاقاتها مع محيطها ويُفسد تعاملها مع النّاس بسبب ما لُقِّنَته في صغرها من الحرص الشّديد والحذر الزّائد والخوف والتّوجس والاحتياط.

ولقد كانت سوسن التي خالطته وأحبّته وتمنّته زَوجًا يُقاسمها حياتها أوّل مَن تعامل معه ولكنّها ابتعدت عنه وصَدَّت صُدودًا إذْ هو شخصيّة خائفة مترددة ولأنّها لم تَجِد عنده كذلك، تلك الأوصاف التي تحلم بها الأنثى في شريك حياتها كالثّقة بالنّفس والحزم والحسم والقوّة والتّصميم

1–التّوازن في علم الكيمياء هو صفة الجسم الخاضع لشروط البيئة المحيطة به (درجة الحرارة، الضّغط..) بحيث يقابل كلّ حالة محدّدة من هذه الشّروط، والمسمّاة أيضًا بعوامل التّوازن، حالة محدّدة من أحوال ذلك الجسم مهما يكُن اتّجاه التغيّرات الطّارئة. وتوازن الميول، في علم النّفس، هو الحالة التي تعتدل فيها الميول فلا يبلغ أحدها درجة من العنف والتّطرف بحيث يستطيع معها أنْ يَستقلّ بتوجيه نشاط العقل.

وتزوّجت رجلاً آخر، كانت قبلُ تخافه وتخشاه، لأنّ سلوك رؤوف بَدا لها غير مفهوم أو غير متّزن ثمّ هو مِن بعدُ، سلوك قد يَجني عليها وقد يُعطِّل أنوثتها.

لقد استطاع نجيب الكيلاني، من خلال هذا النّص القصير، متوسِّلاً بالكلمات ومُنتقيًا الألفاظ أنْ يَبني شخصيّة رؤوف الطّبيب ويرسم خَوفها الدّفين وتردّدها القديم الذي يُعوّقها ويصوّر مجموع ما تُعانيه مع محيطها وكيف يَجني عليها خوفُها الذي يجتاحها وتردُّدها المُقيم فيها وتوجُّسها واهتيابُها فتَخسر ما تَخسَر في علاقاتها مع النّاس...كلّ أولئك يحقّقه نجيب الكيلاني بكلمات سهلة وبألفاظ بسيطة. وهذه الكلمات السّهلة والألفاظ إنّما تحقّقت بها هذه المزيّة ونجح بها هذا التّصوير لأنّ القدرة الفنّية الفائقة عند نجيب الكيلاني، وموهبته الفنّية ومَقدرته على صياغة هذه الكلمات والعبارات وسَبكها ونَظْمها وترتيبها وطريقة العرض والأسلوب كلّ أولئك جعل هذه الكلمات والألفاظ تكتسب دلالات جديدة وإيحاءات عميقة تَفي بالموضوع وتدلّ على المقصود.

5- الكثافة والتّركيز:

لقد اتّجهت عناية نجيب الكيلاني، في قصصه، إلى ركوب مطيّة الكثافة والتّركيز لعلمه بأنّ الاقتصاد في العبارة والاختزال في الكَلِم قد يتحقّق به الوصف الدّقيق والمعنى العميق والتّعبير القويّ الذي يَصل إلى المعنى مِن أقصر الطّرق ويصنع الإشعاع الواسع الذي يجعل الكلمات تَنتشرُ معانيها وتَتمدّد. وهذه الكثافة والتّركيز قد تَخدم القاصّ وتُسعفه في أداء المعنى الكبير بأقلّ الألفاظ والعبارات وهو ما قد تتخلّف عنه صفحات طِوال من الإسهاب والتّوسع والإطناب.

وسبيل الكيلاني لتحقيق هذا الأمر هو اختياره للّفظة المناسبة أو اللّفظتين أو العبارة المواتية أو العبارتين ذوات الدّلالة المناسبة للموضوع ثم وَضْعهما في السّياق المراد وفي النّظم المعلوم فتَفيض هذه الألفاظ والعبارات بمعانٍ جديدة وتُشعّ دلالات كبرى تُغني المشهد بمضامين جديدة وتضاعف من أثره وتأثيره. وفي الصّفحات التّالية نماذج من الأمثلة والنّماذج يَستبين بها هذا الكلام.

سالم سجين متَّهم بالقتل حُكم عليه بالسّجن عشر سنين. يعاني الوحدة والانقطاع وقد أثّر عليه السّجن تأثيرًا كبيرًا ولكنْ ما قَهَره. سالم، اليوم، في معيّة حارسه، وهو ذاهبٌ إلى المستشفى للعلاج بعد ثلاث سنوات قضاها في ظلمة السّجن منقطعًا عن الحياة والأحياء. سالم السّجين لا يَأبه بمرضه لأنه مشغول بشيء آخر يُنسيه ألَمَه ومأخوذ بأمر جَلَل يملأ شعوره ويملأ حواسّه. وعيناه الجائعتان تلتهمان الصّور والمشاهد مِن حَوله: «الأطفال...النّساء...المزروعات...الحيوانات...كلّ شيء جميل...جميل.. له طعم خاصّ...حلو المذاق»[1].

[1] – انظر نجيب الكيلاني، العالم الضيق، ص23.

ISSN: 2253 – 0592 /الإيداع القانوني: 2751 – 2012 صنف (ج)

كلمات قلائل يتوسّل بها نجيب الكيلاني ويضعها في سياقها المناسب فتُعطي من المعاني والدّلالات ما تَعجز عنه جُمل طويلة وعبارات. فإذا تأمَّلنا هذه الكلمات فماذا نحن واجدون؟ وما الذي سوّغ للكيلاني وَضعها في هذا النَّظم؟ وما الذي تَعنيه هذه الكلمات وهي مجتمعة؟

إنّ الذي يَجمع بين هذه الكلمات: الأطفال...النّساء...المزروعات...الحيوانات...مجموعة من الأوصاف وهي الحركة والنّماء والبهجة والأُنس والتّجدّد والعطاء... وهذه أوصاف الحياة التي تَهَشّ إليها روح سالم القابع في سجنه المظلم. وهذه هي الحياة بفَيضها وتنوّعها وقد حُرِمها سالم منذ ثلاث سنين يَكتشفها، اليوم، من جديد ويتذوّق حلاوتها. وهذه الحياة وتنوُّعها وحلاوتها وبهجتها يفتقدها سالم في سجنه لأنّ السّجن هو الظّلمة والقَتامة والكآبة والحزن والعزلة والانقطاع. وإنّ جُوعه إلى الحياة وظمأه إليها واشتهاءه لها يزداد حِدّةً ويتضاعف قوّةً عند رؤية كلّ مظهر من مظاهرها.

مثال آخر عن هذه الكثافة والتّركيز يلجأ إليه نجيب الكيلاني حين يُنطق سالم الجائع إلى الحياة بهذه العبارة: «...مجتمع بلا أطفال ونساء مجتمع متوحِّش.. »[1]. وفي هذه العبارة، أيضًا، تصوير للحياة وتكثيف لقيمها ومعانيها: الأطفال والنّساء. فالمرأة هي عنوان اللّذة وهي الأُنس وهي الخُضرة والخصوبة وهي الزّيادة والنّماء. أمّا الأطفال فهُم الفرحة والبهجة والحركة والنّمو والغَد والامتداد. وهذه هي الحياة بزينتها وفتنتها وبأوصافها ومظاهرها وبما يَلَذّ فيها ويُعجب وَضَعها نجيب الكيلاني في كلمتين اثنتين أو ثلاث. وإنّ مثل هذه القدرة الفنّية والخطوة النّوعية عمل كبير لا يستطيعه ولا يأتيه من الفنّانين إلاّ القليل.

ونجد عند نجيب الكيلاني، في مواطن من قصصه، نماذج مختلفة من هذه الكثافة والتّركيز التي تجعل القاصّ يَصل إلى غايته من أقصر الطّرق متجنّبًا السّرد الطّويل ومتخلِّصًا من عيوبه.

ففي قصّة «المصلوب» يعتزم عاهد الشّاكر، وهو قائد عسكريّ في حرب فلسطين، تسليم نفسه لليهود الذين أعلنوا مكافأة قدرها ثلاثة آلاف جنيه لمَن يقبض عليه حيًّا. وقد رضي أنْ يُضحّي بنفسه ويَحصل جنوده على المال والسّلاح لأنّ حياته ليست بذات قيمة وبال إذا كانت ثمنًا لهدف كبير يحقّق صمود المقاومة ومواصلة الجهاد. وتتمّ العمليّة ويُقبض الثّمن ويُصلب القائد.

[1] – انظر نجيب، الكيلاني، عند الرّحيل، ص 163

ISSN: 2253 – 0592 /الإيداع القانوني: 2751 – 2012 صنف (ج)

هذه البطولة يصوّرها نجيب الكيلاني على لسان أحد الجنود الذين يتطلّعون إلى نجاة قائدهم وعودته: «...متى يعود القائد؟ أحقًّا يعود عاهد؟ آه...الشّرفاء الأُصلاء الذين يصعدون إلى القمّة لا يعودون إلى السّفح...مستحيل...مستحيل»[1].

وحين يجيء سكّانُ القرية الشّيخ عارف، وهو من الأولياء الصّالحين، يستنصحونه طالبين عَونه ودعاءه وآملين أنْ يخلِّصهم من الظّلم الذي يسلّطه عليهم سعد بخيت الذي يستحلّ دماءهم وأموالهم يُجيبهم باختصار: «...عندما تَصرعون الخوف الذي يملأ قلوبكم ».[2]

في هذه العبارة، وهي مثال آخر لهذه الكثافة والتّركيز، اختصر هذا الشّيخ سبب مآسي القرية وكلّ عذابها في كلمة واحدة وهي الخَوف: خَوفكم هو قَيدكم وهو سِجنكم. فإذا صَرعتم خوفَكم وكَسرتم قَيدكم زال عذابُكم.

خاتمة:

من مجموع ما تقدّم من عرض وتحليل يمكن استخلاص النّتائج التّالية:

1- أنّ نجيب الكيلاني يتعامل مع اللّغة على أنّها كائن حيّ وأنّ عناصر الحياة فيها هي التي تجعلها قادرة على العطاء والتّأثير وبثّ الحياة والحركة والاندفاع في كلّ ما تقترب منه أو تتناوله أو تَرسمه.

2- إنّ الشّعور باللّغة هو خطوة أخرى بعد تحقيق العِلم بها وهو مستوًى آخر بعد التّمكن منها واستعمالها استعمالاً فصيحًا صحيحًا. وقد قادت نجيب الكيلاني معاناتُه للّغة إلى الشّعور بها شعورًا خاصًّا بَدَت بعض نتائجه أو مظاهره في إبداعه القصصيّ.

3- أمّا التّصوير، وهو مزيّة الفنّ الأولى، فقد بلغ فيه نجيب الكيلاني مَبلغه وحقّق منه نصيبًا وافرًا. وهذا التّصوير قد يكون موهبةً أُوتِيها القاصّ ولكنّه، أيضًا، نتيجة طبيعيّة لنظرته المتميّزة للّغة ولإحاطته بمصادر الحيويّة فيها ولمعاناته لها وشعوره بها هذا الشّعور الفائق.

4- ليس من المبالغة، إذنْ، القول بأنّ نجيب الكيلاني، واختصاصُه الأوّل هو الطّب، قاصٌّ وأنّ موهبته القصصيّة الظّاهرة في النّماذج التي تناولها هذا المقال تدلّ على قدرته الفنّية كما تدلّ على ذوقه وتُشير إلى معاناته وتُنْبئ بذاتيته وأصالته. والمؤمَّل أنْ تتناول بحوث أخرى ومقالات فنَّه وإبداعه فتصل إلى نتائج أخرى وخلاصات تؤكّد قيمة هذا الرّجل الفنّية وجمال فنّه وسَبْق إبداعه.

[1] – المصدر السّابق ص 41.

[2] – المصدر السّابق ص 42.

قائمة المصادروالمراجع

1- التّهانوي، محمد عليّ. كشّاف اصطلاحات الفنون والعلوم. الجزء 2. تقديم وإشراف ومراجعة رفيق العجم. مكتبة لبنان ناشرون. بيروت: ط. الأولى.1996

2-الجرجاني، عليّ بن محمد الشّريف. التّعريفات. مكتبة. بيروت. طبعة جديدة.1985

3- سارتر، جون بول. ما الأدب؟ تر محمد غنيمي هلال. دار العودة لبنان. بيروت 1984.

4- صليبا، جميل. المعجم الفلسفيّ. الجزء.2. دار الكتاب اللّبناني. بيروت.1978

5- الكيلاني، نجيب. تجربتي الذّاتية في القصّة الإسلامية. دار ابن حزم. بيروت.1991

6- الكيلاني، نجيب. العالم الضيّق. مؤسّسة الرسالة. بيروت.1993

7- الكيلاني، نجيب. عند الرّحيل. مؤسّسة الرسالة. بيروت.1999

8- مجمع اللّغة العربية بمصر. المعجم الفلسفيّ. الهيئة العامّة لشؤون المطابع الأميرية. القاهرة.1983

9- مجمع اللّغة العربية بمصر. المعجم الوسيط. الجزء 2. دار الفكر. بيروت ط.2.بدون تاريخ.